مركز البيان للدراسات والتخطيط
Al-Bayan Center for Planning and Studies

أكثر ما يخشاه بوتين

روبرت بيرسون – مايكل ماكفول

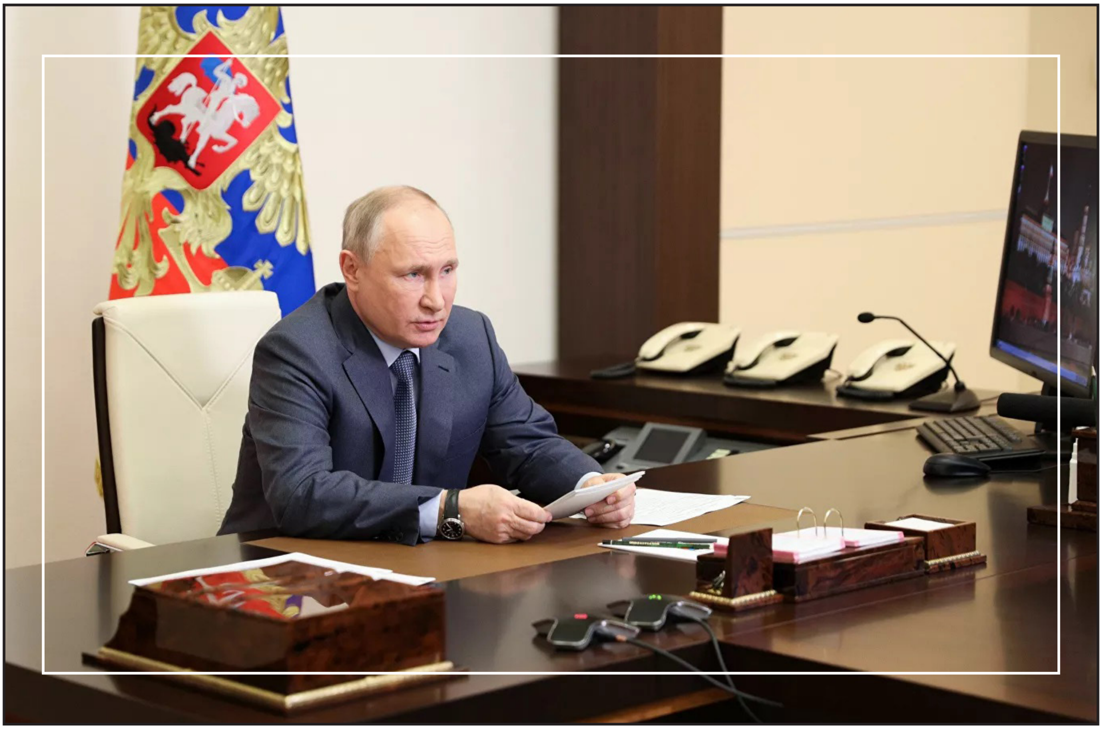

ترجمة وتحرير مركز البيان للدراسات والتخطيط

عن المركز

مركزُ البيان للدراسات والتخطيط مركز مستقلٌّ، غيرُ ربحيّ، مقرّه الرئيس في بغداد، مهمته الرئيسة -فضلاً عن قضايا أخرى- تقديم وجهة نظر ذات مصداقية حول قضايا السياسات العامة والخارجية التي تخصّ العراق بنحو خاصٍ ومنطقة الشرق الأوسط بنحو عام. ويسعى المركز إلى إجراء تحليل مستقلّ، وإيجاد حلول عمليّة جليّة لقضايا معقدة تهمّ الحقليْن السياسي والأكاديمي.

ملاحظة:

الآراء الواردة في المقال لا تعبر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها المركز، وانما تعبر عن رأي كتابُها.

حقوق النشر محفوظة © 2022

www.bayancenter.org
info@bayancenter.org

Since 2014

أكثر ما يخشاه بوتين

روبرت بيرسون * - مايكل ماكفول**

بدأ الغزو الروسي لأوكرانيا. ويريد الرئيس الروسي «فلاديمير بوتين» منكم أن تصدِّقوا أنَّ هذا خطأ الناتو. لقد ادَّعى مراراً (بما في ذلك مرة أخرى في خطاب موجَّه إلى الأمة مع بدء هذا الغزو) أن توسع الناتو –وليس 190.000 جندي وبحارة روسي حُشِّدوا على حدود أوكرانيا– هو المحرك الرئيس لهذه الأزمة. بعد مقال جون «ميرشايمر» الاستفزازي في الشؤون الخارجية لعام 2014 الذي يجادل في أنَّ «أزمة أوكرانيا هي خطأ الغرب»، أصبحت حكاية رد الفعل الروسي العنيف ضد توسُّع الناتو إطاراً مهيمناً لشرح –إن لم يكن لتبرير– حرب موسكو المستمرة ضد أوكرانيا. كُرِّرتْ هذه الفكرة من قبل السياسيين والمحللين والكتاب في الولايات المتحدة وأوروبا وأماكن أخرى. وهم يجادلون بأنَّ جولات التوسيع المتعددة أدَّت إلى تفاقم شعور روسيا بانعدام الأمن مع زحف قوات الناتو تقرُّباً من الحدود الروسية. والذي بدوره أدَّى إلى استفزاز «بوتين» ودفعه للهجوم بعنف، أولاً عن طريق غزو جورجيا في عام 2008، ثم أوكرانيا (شبه جزيرة القرم) في عام 2014، والآن غزو ثانٍ لأوكرانيا، ومن المرجَّح أن يكون أكبر بكثير. عن طريق هذا السرد، يشير شبح عضوية أوكرانيا في الناتو إلى كلٍّ من أسباب الصراع وحلِّها (سحب عضوية أوكرانيا من على طاولة المفاوضات، هكذا سينتهي الجدل، وتُمنع الحرب.

هذه الحجة بها عيبان، أحدهما يتعلَّق بالتاريخ والآخر في تفكير «بوتين». أولاً، لم يكن توسُّع الناتو مصدراً ثابتاً للتوتُّر بين روسيا والغرب، بل كان متغيراً. ازدادت أهمية القضية وانخفضت ليس بسبب موجات توسع الناتو في المقام الأول، ولكن بسبب موجات التوسع الديمقراطي في أوراسيا على مدار الثلاثين عاماً الماضية. في نمط واضح للغاية، ارتفعت شكاوى موسكو بشأن الناتو بعد تَوسُّع الديمقراطية. في حين ضمنت الغزوات والاحتلال المأساوي لجورجيا وأوكرانيا لـ»بوتين» حكم الأمر الواقع على الأرض عكس تطلعات الناتو؛ لأنَّ الحلف لن يسمح أبداً بدولة تحت الاحتلال الجزئي من قبل القوات الروسية بالانضمام. هذه الحقيقة تقوِّض ادِّعاء «بوتين» باستهداف الغزو

* أستاذ مشارك في العلاقات الدولية في الأكاديمية العسكرية الأمريكية ومدير منهج الشؤون الدولية في ويست بوينت

** سفير الولايات المتحدة السابق في روسيا، وهو أستاذ العلوم السياسية بجامعة ستانفورد، ومدير معهد فريمان سبوجلي للدراسات الدولية.

الحالي لعضوية أوكرانيا في الناتو. لقد منع -فعلاً- توسُّع الناتو لجميع المقاصد والأغراض، وبذلك كشف أنَّه يريد شيئاً أهم في أوكرانيا اليوم، هو: نهاية الديمقراطية وعودة التبعية.

يسلِّط هذا الواقع الضوءَ على الخلل الثاني: نظراً للتهديد الأساسي لـ«بوتين» ونظامه الاستبدادي هو الديمقراطية، وليس الناتو، فلن يختفي هذا التهديد المتصوَّر بطريقة سحرية مع وقف توسُّع الناتو. لن يتوقف «بوتين» عن السعي لتقويض الديمقراطية والسيادة في أوكرانيا أو جورجيا أو المنطقة ككل، حتى وإن توقَّف الناتو عن التوسُّع. طالما يمارس المواطنون في البلدان الحرة حقوقهم الديمقراطية في انتخاب قادتهم وتحديد مسارهم الخاص في السياسة الداخلية والخارجية، فسيبقيهم «بوتين» في مرماه.

كيف وصلنا إلى هذه النقطة؟!

من المؤكد أنَّ حلف الناتو وتوسعه كان -دائماً- مصدرَ توتُّرٍ في العلاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وبين الولايات المتحدة وروسيا. شارك أحدنا (مع جيمس جولدجير) في تأليف كتاب عن العلاقات الأمريكية الروسية، القوة والغرض، يتضمن فصلاً بعنوان «ناتو هي كلمة من أربعة أحرف» قبل عقدين من الزمن. أعرب قادة الكرملين «ميخائيل جورباتشوف، وبوريس يلتسين، وبوتين، وديمتري ميدفيديف» وبدرجات متفاوتة عن مخاوفهم بشأن توسُّع التحالف.

أبقى الناتو بابه مفتوحاً -منذ تأسيسه في عام 1949- أمام الأعضاء الجدد الذين يستوفون معايير القبول. بعد انهيار الاتحاد السوفياتي في عام 1991، لا ينبغي لأحد أن يتفاجأ من أنَّ الدول التي سبق أن ضمَّها الاتحاد السوفيتي وأخضعها وغزاها قد تسعى إلى إقامة علاقات أمنية أوثق مع الغرب. عملت الولايات المتحدة وحلفاء آخرون في الناتو جاهدين على عدم إنكار تطلُّعات تلك المجتمعات الحرة حديثاً مع روسيا في القضايا الأوروبية وغيرها أمنياً. لقد نجحوا في بعض الأحيان، والعكس أحياناً.

يتجاهل عديد ممَّن يلومون النزاع الحالي في أوكرانيا على الناتو حقيقةَ أنَّه خلال الثلاثين عاماً التي انقضت منذ نهاية الحرب الباردة، ومنذ ذلك الحين انحرف رفض موسكو لتوسيع الناتو في اتجاهات مختلفة وفي أوقات مختلفة.

حينما وافق الرئيس «بوريس يلتسين» على التوقيع على القانون التأسيسي لروسيا والناتو في

عام 1997، قامت روسيا والتحالف بتدوين برنامج تعاون شاملة في هذه الاتفاقية. أعلن يلتسين في حفل التوقيع، «المهم أيضاً هو أنَّنا نخلق آليات للتشاور والتعاون بين روسيا والحلف. وهذا سيمكننا من النقاش (على أساس عادل ومتكافئ)، وإصدار قرارات مشتركة بشأن القضايا الرئيسة المتعلقة بالأمن والاستقرار عند الحاجة، وتلك القضايا والمجالات التي تمس مصالحنا».

اقترح «بوتين» -الذي كان يشغل منصب الرئيس الروسي بالإنابة- في عام 2000 أثناء زيارته إلى لندن، أنَّه بإمكان روسيا أن تنضمَّ إلى الناتو يوماً ما: «لِمَ لا؟ لِمَ لا؟! ... لا أستبعد مثل هذا الاحتمال ... في حالة احتساب مصالح روسيا إذا كانت ستصبح شريكاً على قدم المساواة. روسيا جزء من الثقافة الأوروبية، وأنا لا أعدُّ بلدي بمعزلٍ عن أوروبا ... لذا، أتخيل بصعوبة أنَّ الناتو هو عدو». لماذا سيرغب بوتين في الانضمام إلى تحالف يُزعم أنَّه يهدِّد روسيا؟!

أقام الرئيسان «بوش، وبوتين» -بعد 11 سبتمبر 2001- علاقةً تعاونيةً وثيقةً لمحاربة عدو مشترك، هو الإرهاب. كان تركيز «بوتين» في ذلك الوقت على التعاون مع الناتو وليس المواجهة. المرة الوحيدة التي استخدم فيها الحلف المادة 5 بشأن الدفاع الجماعي كانت لدعم تدخُّل الناتو في أفغانستان، وهو الإجراء الذي أيَّده «بوتين» في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة. ثم تابع هذا الدعم الدبلوماسي بمساعدة عسكرية ملموسة وقوية للتحالف.

أبدى «بوتين» خلال زيارته للولايات المتحدة في تشرين الثاني (نوفمبر) 2001 ملاحظة واقعية لكنَّها تعاونية، هي: «نحن نختلف في الطرائق والوسائل التي ندرك أنَّها مناسبة للوصول إلى الهدف نفسه... [ولكن] يمكن للمرء أن يطمئن إلى أنَّه أياً كان الحل النهائي الذي يُعثر عليه، فلن يهدِّد ... مصالح كل من بلداننا والعالم». وفي مقابلة من الشهر نفسه، أعلن «بوتين» أنَّ «روسيا تعترف بدور الناتو في عالم اليوم، وروسيا مستعدة لتوسيع تعاونها مع هذه المنظمة. وإذا قمنا بتغيير جودة العلاقة، وإذا غيَّرنا صورة العلاقة بين روسيا وحلف الناتو، فأعتقد أنَّ توسيع حلف الناتو سيتوقَّف عن أنَّه مشكلة، ولن يكون قضية ذات صلة بعدها».

حينما أعلن الناتو في عام 2002 خطته لموجة كبيرة من التوسع تشمل ثلاث جمهوريات سوفيتية سابقة -إستونيا، ولاتفيا، وليتوانيا- كان رد فعل «بوتين» شبه معدوم. لم يهدِّد بغزو أيٍّ من البلدان لإبقائها خارج الناتو. ووُجِّه سؤال له في أواخر عام 2001 عمَّا إذا كان يعارض عضوية دول البلطيق في الناتو، مجيباً: «نحن بالطبع لسنا في وضع يسمح لنا بإخبار الناس بما يجب عليهم

فعله. لا يمكننا منع الناس من اتخاذ خيارات معينة إذا كانوا يريدون تعزيز أمن دولهم بطريقة معينة».

حتى أنَّ «بوتين» حافظَ على الموقف نفسه حينما كان الأمر يتعلق بدخول أوكرانيا يوماً ما إلى الحلف الأطلسي. في مايو 2002، وحينما سُئِلَ «بوتين» عن آرائه حول مستقبل علاقات أوكرانيا مع الناتو، أجاب بطريقة موضوعية، «أنا مقتنع تماماً بأنَّ أوكرانيا لن تتردَّد في عمليات توسيع التفاعل مع الناتو والحلفاء الغربيين ككل. أوكرانيا عندها علاقاتها الخاصة مع الناتو. هناك مجلس أوكرانيا–الناتو. في نهاية المطاف، سيتخذ الناتو وأوكرانيا القرار. إنَّها مسألة لهذين الشريكين».

بعد عقد من الزمان، وفي عهد الرئيس «ميدفيديف» كانت روسيا وحلف شمال الأطلسي يتعاونان مرة أخرى. أعلن «ميدفيديف» في قمَّة الناتو عام 2010 في لشبونة، أنَّ «مدَّة التباعد في علاقاتنا ومطالباتنا ضد بعضنا بعضاً قد ولَّت الآن. نحن ننظر إلى المستقبل بتفاؤل وسنعمل على تطوير العلاقات بين روسيا وحلف شمال الأطلسي في جميع المجالات ... [في حين يتقدَّمون نحو شراكة كاملة». في تلك القمة، عرض إمكانية التعاون بين روسيا والناتو في مجال الدفاع الصاروخي. ولم تظهر شكاوى حول توسُّع الناتو.

منذ نهاية الحرب الباردة وحتى غزو «بوتين» لأوكرانيا في عام 2014، كان الناتو في أوروبا يسحب الموارد والقوات، وليس بنائها. حتى مع توسيع العضوية، كانت القدرة العسكرية لحلف الناتو في أوروبا أكبر بكثير في التسعينيات ممَّا كانت عليه في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. كان بوتين –خلال هذه المدَّة نفسها– ينفق موارد كبيرة لتحديث القوات الروسية التقليدية المنتشرة في أوروبا وتوسيعها. كان ميزان القوى بين الناتو وروسيا يتحوَّل لصالح موسكو.

تقوِّض حلقات التعاون الجوهري بين روسيا والناتو الحجة القائلة بأنَّ توسُّع الناتو كان دائماً وباستمرار هو المحرِّك للمواجهة الروسية مع الغرب على مدى الثلاثين عاماً الماضية. السجل التاريخي بيسر لا يدعم الفرضية القائلة بأنَّ الناتو المتوسِّع يتحمَّل المسؤولية الوحيدة عن العداء الروسي مع الغرب وعدوان موسكو على أوكرانيا منذ عام 2014. بدلاً عن ذلك، يجب أن ننظر في مكان آخر لفهم المصدر الحقيقي لعداء «بوتين» لأوكرانيا وشركائها الغربيِّين.

مخاوف «بوتين» الحقيقية

كان السبب الأخطر للتوترات هو سلسلة الاختراقات الديمقراطية والاحتجاجات الشعبية من أجل الحرية طيلة العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، وهو ما يشير إليه الكثيرون باسم «الثورات الملونة». يعتقد «بوتين» أنَّ المصالح الوطنية الروسية مهدَّدة بما يصوِّره على أنَّه انقلابات مدعومة من الولايات المتحدة. بعد كلٍّ من (صربيا 2000، وجورجيا 2003، وأوكرانيا 2004، والربيع العربي 2011، وروسيا 2011-2012، وأوكرانيا 2013-2014). لقد انزلق «بوتين» إلى سياسات أكثر عدائية تجاه الولايات المتحدة، ثم استند إلى تهديد الناتو بوصفه مبرِّراً للقيام بذلك.

لم يؤيِّد «بوريس يلتسين» توسُّع الناتو أبداً، ولكنَّه رضخ للجولة الأولى من التوسُّع في عام 1997 لأنَّه يعتقد أنَّ علاقاته الوثيقة مع الرئيس «بيل كلينتون» والولايات المتحدة لا تستحق التضحية بشأن هذه المسألة الأصغر نسبياً. بذل «كلينتون» وفريقه جهوداً كبيرة -عن طريق الشراكة من أجل السلام وخاصة القانون التأسيسي لحلف الناتو وروسيا- للحفاظ على العلاقات الأمريكية الروسية إيجابية مع إدارة توسُّع الناتو في الوقت نفسه. كان قصف الناتو عام 1999 لصربيا لوقف التطهير العرقي في «كوسوفو» بمنزلة اختبار شديد لتلك الإستراتيجية، لكنَّه نجا جزئياً؛ لأنَّ «كلينتون» أعطى «يلتسين» وروسيا دوراً في الحل التفاوضي. حينما أطاحت أول ثورة ملونة ما بعد الشيوعية بـ»سلوبودان ميلوسيفيتش» بعد عام، استنكر الرئيس الروسي الجديد «بوتين» هذا الفعل، لكنَّه لم يبالغ في رد فعله. في ذلك الوقت، كان ما يزال يفكِّر في إمكانية التعاون مع الغرب، بما في ذلك الناتو.

ومع ذلك، فقد صعَّدتِ الجولة التالية من التوسُّع الديمقراطي في عالم ما بعد الاتحاد السوفيتي، ثورة الزهور في جورجيا عام 2003 التوترات الأمريكية الروسية تصعيداً كبيراً. ألقى «بوتين» باللوم على الولايات المتحدة بصورة مباشرة للمساعدة في هذا الاختراق الديمقراطي والمساعدة في تثبيت ما رآه دمية مؤيِّدة لأمريكا -الرئيس ميخائيل ساكاشفيلي-. سعى «بوتين» مباشرة بعد ثورة الورد إلى تقويض الديمقراطية الجورجية، وغزاها في نهاية المطاف في عام 2008 واعترف بمنطقتين جورجيتين -أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية- بوصفهما دولتين مستقلتين. وصلت العلاقات الأمريكية الروسية إلى مستوى منخفض جديد في عام 2008.

اندلع أكبر توسُّع ديمقراطي في عالم ما بعد الاتحاد السوفيتي في أوكرانيا في عام 2004، وهي الثورة البرتقالية بعد عام من ثورة الزهور. في السنوات التي سبقت هذا الحدث المهم، كان توجُّه السياسة الخارجية لأوكرانيا في عهد الرئيس «ليونيد كوتشما» متوازناً نسبياً بين الشرق والغرب، ولكن مع تحسُّن العلاقات تدريجياً بين «كييف، وموسكو». تغيَّر ذلك حينما أدَّت انتخابات رئاسية مزورة في أواخر عام 2004 إلى نزول مئات الآلاف من الأوكرانيين إلى الشوارع، ممَّا أدَّى في النهاية إلى إبعاد «فيكتور يانوكوفيتش» خليفة «كوتشما» والمختار بعناية من قبل «بوتين». وتولَّى سلطة الائتلاف البرتقالي الموالي للديمقراطية والمؤيِّد للغرب بقيادة الرئيس «فيكتور يوشينكو» ورئيس الوزراء «يوليا تيموشينكو».

مقارنة بصربيا عام 2000 أو جورجيا عام 2003، كانت الثورة البرتقالية في أوكرانيا عام 2004 تمثِّل تهديداً أكبر بكثير لـ«بوتين». حدثت الثورة البرتقالية فجأة وفي بلد أكبر بكثير وأكثر إستراتيجية على حدود روسيا. أدَّى التحوُّل المفاجئ إلى الغرب من قبل «يوشينكو» وحلفائه إلى جعل «بوتين» يواجه احتمالية أنَّه قد «خسر» دولة وضع عليها أهمية رمزية وإستراتيجية هائلة.

أمَّا «بوتين» فقد قوَّضت الثورة البرتقالية الهدف الأساس لإستراتيجيته الكبرى -إنشاء مجال نفوذ متميِّز وحصري عبر المنطقة التي كانت تشكِّل الاتحاد السوفيتي ذات يوم-. يؤمن «بوتين» بدوائر النفوذ. إنَّ روسيا بوصفها قوة عظمى، لها الحق في نقض القرارات السياسية السيادية لجيرانها. يطالب «بوتين» -أيضاً- بحصر القرارات المتخذة من دول الجوار به فقط، أي: يمكن أن تكون روسيا القوة العظمى الوحيدة لممارسة مثل هذا الامتياز (أو حتى تطوير علاقات وثيقة) مع هذه البلدان. لقد ازداد هذا الموقف تشدُّداً كبيراً منذ موقف «بوتين» التصالحي في عام 2002، إذ تضاءل نفوذ روسيا في أوكرانيا وأعلن مواطنو أوكرانيا مراراً وتكراراً عن رغبتهم في الهروب من قبضة موسكو. كان الخنوع الآن مطلوباً. كما أوضح «بوتين» في مقال تاريخي حديث، فإنَّ الأوكرانيين والروس في نظره «كانوا شعباً واحداً» يسعى إلى لمِّ شملهم، حتى لو كان ذلك عن طريق الإكراه. لذ، شكلت خسارة أوكرانيا لبوتين في عام 2004 لصالح الغرب نقطةَ تحوُّلٍ سَلبية كبيرة في العلاقات الأمريكية الروسية التي كانت أكثر بروزاً بكثير من الموجة الثانية لتوسيع الناتو التي اكتملت في العام نفسه.

هؤلاء الأوكرانيون الذين انتفضوا دفاعاً عن حريتهم كانوا وَفْقاً لتقدير «بوتين» الخاص إخوة سلافيون تربطهم روابط تاريخية ودينية وثقافية وثيقة بروسيا. إذا كان من الممكن أن يحدث ذلك في

«كييف»، فلماذا لا يحدث في «موسكو»؟ كاد أن يحدث ذلك في روسيا بعد عِدَّة سنوات حينما اندلعت سلسلة من الاحتجاجات الجماهيرية في «موسكو، وسانت بطرسبرغ» ومدن أخرى في أعقاب الانتخابات البرلمانية المزوَّرة في ديسمبر 2011. كانت أكبر احتجاجات في روسيا منذ عام 1991، العام الذي انهار فيه الاتحاد السوفيتي. لأول مرة أبَّان حكمه التي تزيد عن عقد من الزمن، أظهر المواطنون الروس العاديُّون أنَّ لديهم الإرادة والقدرة على تهديد قبضة «بوتين» على السلطة. شكلت تلك الانتفاضة الشعبية في روسيا، التي حدثت في العام نفسه الذي حدث فيه الربيع العربي، ثم أعقب ذلك عودة «بوتين» إلى الكرملين بوصفه رئيساً لولاية ثالثة في عام 2012، منعطفاً سلبياً رئيساً آخر في العلاقات الأمريكية الروسية. إنهاء إعادة التعاون التي أطلقها الرئيسان «أوباما، وميدفيديف» في عام 2009. أنهتِ التعبئة الديمقراطية في الشرق الأوسط أولاً ثم روسيا (وليس توسُّع الناتو) الفصلَ الأخير من التعاون الأمريكي الروسي. لم تكن هناك فصول جديدة للتعاون منذ ذلك الحين.

لكن، تدهورت العلاقات الأمريكية الروسية أكثر من أيِّ وقت مضى في عام 2014، مرة أخرى بسبب التوسُّع الديمقراطي الجديد. حدثت التعبئة الديمقراطية التالية لتهديد «بوتين» للمرة الثانية في أوكرانيا في 2013-2014. لم يغزُ «بوتين» أوكرانيا بعد الثورة البرتقالية في عام 2004، ولكنَّه استخدم أدوات نفوذ أخرى لمساعدة تلميذه، «فيكتور يانوكوفيتش»، على الفوز بفارق ضئيل بالرئاسة الأوكرانية بعد ستِّ سنوات. ومع ذلك، تبيَّن أنَّ «يانوكوفيتش» ليس خادماً مخلصاً للكرملين، لكنَّه حاول تنمية العلاقات مع كلٍّ من روسيا والغرب. أجبر «بوتين» «يانوكوفيتش» أخيراً على الاختيار، واختار الرئيس الأوكراني روسيا في خريف عام 2013 حينما تراجع عن توقيع اتفاقية الشراكة مع الاتحاد الأوروبي لصالح العضوية في الاتحاد الاقتصادي الأوراسي الروسي، وقد شكَّل هذا مفاجأةً للجميع في «موسكو، وكييف، وبروكسل، وواشنطن».

أثار قرار «يانوكوفيتش» بإبطال هذا الاتفاق مع الاتحاد الأوروبي مظاهرات حاشدة في أوكرانيا مرة أخرى، ممَّا أدَّى إلى خروج مئات الآلاف من الأوكرانيين إلى الشوارع فيما أصبح يُعرف باسم الميدان الأوروبي أو «ثورة الكرامة» للاحتجاج على ابتعاد «يانوكوفيتش» عن الغرب الديمقراطي. استمرت احتجاجات الشوارع أسابيع عديدة، تخلَّلها مقتل العشرات من المتظاهرين السلميين على يد حكومة «يانوكوفيتش»، والانهيار النهائي لتلك الحكومة وهروب «يانوكوفيتش» إلى روسيا في فبراير 2014، وتولِّي حكومة جديدة موالية للغرب السلطة في «كييف». كان «بوتين» قد «خسر» أوكرانيا للمرة الثانية خلال عقد من الزمن.

ردَّ «بوتين» هذه المرة بقوة عسكرية لمعاقبة المغتصبين النازيين الجدد المزعومين المدعومين من أمريكا في «كييف». استولت القوات المسلحة الروسية على «القرم»؛ ضمَّت «موسكو» فيما بعد شبه الجزيرة الأوكرانية. كما قدَّم «بوتين» الأموال والمعدات والجنود لدعم الانفصاليين في شرق أوكرانيا، ممَّا أدَّى إلى اندلاع حرب في «دونباس» لثمان سنوات، قتل فيها ما يقرب من 14000 شخص. بعد الغزو، وليس قبل ذلك، صعد «بوتين» من انتقاداته لتوسيع الناتو كمبرر لأفعاله العدوانية.

رداً على هذه الثورة الديمقراطية الأوكرانية الثانية، خلص «بوتين» إلى أنَّ الانتخاب عن طريق الانتخابات وغيرها من الوسائل غير العسكرية يجب أن يُعزَّز بمزيد من الضغط القسري، بما في ذلك التدخُّل العسكري. منذ ثورة الكرامة، شنَّ «بوتين» حرباً غير مسبوقة ضد أوكرانيا باستخدام مجموعة كاملة من الأسلحة العسكرية والسياسية والإعلامية والاجتماعية والاقتصادية في محاولة لزعزعة استقرار حكومة أوكرانيا المنتخبة ديمقراطياً وإسقاطها في نهاية المطاف. إنَّ علاقة أوكرانيا بحلف الناتو والولايات المتحدة هي مجرَّد أحد أعراض ما يعتقد «بوتين» أنَّه المرض الأساسي: أوكرانيا ذات السيادة والديمقراطية.

ذريعة الحرب الحقيقية لـ«بوتين»: الديمقراطية الأوكرانية

من المثير للدهشة أنَّ ثمان سنوات من الضغط الروسي الذي لا هوادة فيه لم يكسر ديمقراطية أوكرانيا. على العكس تماماً. بعد أن ضمَّ «بوتين» (شبه جزيرة القرم) والدعم المستمر للحرب في «دونباس»، أصبح الأوكرانيون الآن أكثر اتحاداً عبر الانقسامات العرقية واللغوية والإقليمية أكثر من أي نقطة أخرى في التاريخ الأوكراني. فاز الرئيس «فولوديمير زيلينسكي» في عام 2019 بأغلبية ساحقة، وحصل على دعم شعبي في كل منطقة من مناطق أوكرانيا. ليس من المستغرب أن تؤدِّي حرب بوتين أيضاً إلى زيادة التأييد الشعبي بين الأوكرانيين للانضمام إلى الناتو.

قرَّر بوتين الآن اتباع إستراتيجية جديدة لإنهاء الديمقراطية الأوكرانية، وهي: التدخُّل العسكري الشامل. يدَّعي «بوتين» أنَّ هدفه هو وقف توسُّع الناتو، ولكن هذا مجرَّد خيال. لم يتغيَّر شيء في العام الماضي في العلاقات بين أوكرانيا والناتو. صحيح أنَّ أوكرانيا طامحة للانضمام إلى حلف الناتو يوماً ما. (والهدف مضمن في الدستور الأوكراني). ولكن، في حين ظلَّ قادة الناتو ملتزمين بمبدأ سياسة الباب المفتوح، فقد صرَّحوا أيضاً بوضوح أنَّ أوكرانيا اليوم في وضع يجعلها غير مؤهَّلة للانضمام. إذ إنَّ ذريعة الحرب عند «بوتين» هي من اختراعه الخاص.

لقد اختلق «بوتين» هذه الأزمة حول توسُّع الناتو لتقويض الديمقراطية الأوكرانية بصورة مباشرة. وتسبَّبت التعبئة العسكرية الروسية على حدود أوكرانيا في إلحاق ضررٍ كبيرٍ بالاقتصاد الأوكراني، وغذَّتِ انقسامات جديدة بين الأحزاب السياسية الأوكرانية حول كيفية تعامل «زيلينسكي» مع الأزمة. يجادل بعضهم بأنَّ «زيلينسكي» كان يجب أن يُنْشِئ ائتلافاً كبيراً جديداً أو حكومة وحدة وطنية. ويلومه آخرون على استعداداته المزعومة غير الملائمة للحرب. ويناقش بعضهم إظهار «زيلينسكي» قلَّة خبرته الدبلوماسية عن طريق الحوار مع الرئيس الأمريكي «جو بايدن» حول احتمالية غزو روسي في وقت تشتد فيه الحاجة إلى الوحدة مع الغرب. وبعبارة أخرى، حقَّقتِ التعبئة العسكرية لـ«بوتين» فعلاً بعض النجاحات المبكِّرة في حربه ضد الديمقراطية الأوكرانية.

ومن المفارقات أنَّ استخدام «بوتين» للقوَّة ربَّما عزَّز الديمقراطية الأوكرانية على المدى القصير. أدَّى قراره بغزو أوكرانيا عن طريق إرسال القوات الروسية إلى منطقتي «دونيتسك، ولوهانسك» (اللَّذانِ ما يزالان معترف بهما بوصفهما أراضي أوكرانية ذات سيادة بموجب القانون الدولي) إلى توحيد الأوكرانيين وتعزِّز شعبية «زيلينسكي» وصورته كزعيم للأمة. لكن بقاء الديمقراطية الأوكرانية على المدى الطويل على المِحَك، ويُشير خطاب «بوتين» العدواني إلى أنَّ هجوم موسكو قد بدأ للتو. قد يؤدي غزو الحرب الخاطفة والتطويق السريع لكييف إلى إزاحة «زيلينسكي» بالقوة من السلطة. يمكن للانتخابات الجديدة التي تجرى تحت تهديد السلاح أن تحقِّق الحكومة المطلوبة، تماماً كما حدث في أوروبا الشرقية بعد الحرب العالمية الثانية في ظل الدبابات السوفيتية. ومن السابق لأوانه التنبؤ بالنتيجة. ولكن هدف «بوتين» واضح.

قد يكره «بوتين» توسُّع الناتو، لكنَّه لا يخيفه حقاً. تمتلك روسيا أكبر جيش في أوروبا، وهي الآن أقدر بكثيرٍ بعد عقدين من الإنفاق الباذخ. الناتو هو تحالف دفاعي. لم تهاجم أبداً الاتحاد السوفيتي أو روسيا، ولن تفعل ذلك أبداً. ويعرف «بوتين» ذلك. لكنَّ «بوتين» مهدَّد من قبل ديمقراطية ناجحة في أوكرانيا. لا يستطيع أن يتسامح مع أوكرانيا الناجحة والمزدهرة والديمقراطية على حدوده، خاصة إذا بدأ الشعب الأوكراني أيضاً في الازدهار اقتصادياً. وهذا يقوِّض استقرار نظام الكرملين نفسه، والأساس المنطقي المقترح لقيادة الدولة الاستبدادية. مثلما لا يستطيع «بوتين» السماح لإرادة الشعب الروسي بتوجيه مستقبل روسيا، لا يمكنه السماح لشعب أوكرانيا (الذين يتمتعون بثقافة وتاريخ مشتركين) باختيار المستقبل المزدهر والمستقل الحر الذي صوَّتوا وقاتلوا من أجله.

مع أنَّ فرصة خفض التصعيد بعيدة، إلا أنَّ مزيداً من المفاوضات والتهديد بفرض عقوبات ما زال بإمكانها -من الناحية النظرية- منع الغزو الروسي خارج منطقة «دونباس» الأوكرانية في الأيام أو الأسابيع المقبلة. ولكن بغض النظر عن المكان الذي أمر فيه «بوتين» قوّاته في النهاية بالتوقف (سواءً أكان ذلك في لوهانسك، أم دونيتسك، أم خاركيف، أم أوديسا، أم كييف، أم لفيف)، فسيظلُّ الكرملين ملتزماً بتقويض الديمقراطية والسيادة الأوكرانية (والجورجية والمولدوفية والأرمينية، إلخ)، طالما بقي «بوتين» في السلطة، وربَّما لمدَّة أطول إذا استمرت الأوتوقراطية الروسية.

ويجب ألَّا تكون هناك أوهام حول هدف «بوتين» الإستراتيجي بعيد المدى المتمثِّل في وقف التوسُّع الديمقراطي، في أوكرانيا وسائر المنطقة.

المصدر:

https//:www.journalofdemocracy.org/what-putin-fears-most/